المولدي ضـــو



سيرة المعتوه

(رواية)

الجوائـز الأدبيـة «الكومار الذهبي»

الجائزة الخاصة بلجنة التحكيم

2016

- 2 -

قبل أن نبدأ الحصّة يا آنسة، أغلقي الباب خلفك بإحكام، وتفقّدي تحت السّرير، ثم قلّبي تلك السّتائر على الشّباك. إنّهم كالعثّة أو البقّ منتشرون في كلّ مكان. مستشفى الرّازي هذه واسعة وحولها الكثير من الأشجار والمستنقعات. هم يتزاوجون و يبيضون ويفرّخون كالبعوض في تلك البرك الآسنة، و في اللّيل يتسلّقون الأشجار القريبة من السّور ويهجمون علينا دفعات من كلّ ثقب. بعضهم تمهّر في الوثب، فلا تعيقه الحيطان القصيرة. وآخرون يتسرّبون من البالوعات والأنابيب الصّدئة، يكونون في هيئة صراصير وجنادب قبيحة.

البارحة بعد ذهابك، تصيّدت ثلاثة منهم. وعذّبتهم بعود يابس. فاعترفوا أنّهم من البوليس السّري وأنّهم كرهوا التّنكر، ولمّا بقرت بطن أحدهم بالعود، اعترف الآخران بكلّ التقارير السّرية، إنّها تقارير مفصّلة عن المرضى ومن يزورهم وما يحملونه في قِفاف الطّعام. أغرب ما سمعت منهما أنّ الأطبّاء والممرّضين وأعوان النّظافة كلّهم من العملاء. كذلك شأن حرّاس البوابة الخارجيّة. لكن سمح لجميعهم بالتّنكّر في زِيّ آدمي. دعست الثاني فاعترف ثالثهم أنّ أخطر فرقة فيهم فرقة الجرذان التي تسكن قنوات التّصريف، تلك تسير في الحلاقيم وتسجّل حركات المرضى وسكناتهم وهذاءهم ، سألته ماذا كتبوا عنّي ؟ قال قرأوا كلّ ما كتبت. ووجدت روثهم فعلا في صندوق دفاتري، وقد نتشوا بعض أوراقه.. ماذا فعلت بثالثهم؟ خنقته بخيط حذائي حتّى جحظت عيناه، وعلّقته على الطّرف الخارجي من الشّباك. الحقّ منذ شاهدوا زميلهم مشنوقا على

النّافذة قلّ دبيبهم في سقف الغرفة، حتى الصّراصير والجنادب لم أعد أراها في الرّكن.. ماذا ؟ لا شيء تحت السّتائر...

لولا عيناك صافيتان واسعتان لقلت بصرك حسير، أنا على يقين، يمنعهم منك عطرك الرّبيعيّ ، هم يكرهونه ولا تطيقه أنوفهم العفنة، "كلّما دقّ ساقها".. آخر عهدي بالبراءة، من تكون ؟ تلك قصّة طويلة وجلسة واحدة لا تكفيها، البارحة جاءتني في الحلم وسألتني: هل نسيتني؟.. ما معناه يا طبيبة ؟ أنتم علماء النّفس تهتمّون بالأحلام، لعلمك هذا لم يكن من الأحلام، كانت جريمة نكراء ارتكبتها بنفسي، ألا يظلّ القتيل في الأساطير يراود قاتله حتّى يثأر. وأنا أسطورة العقود البنفسجية، تراودني تلك الشّابة في أغلب اللّيالي، كم مرّة همست في أذني : أتنتحر وتتركني؟ ما أجبنك! ولكن كنت كما ذكرت لك. أجبن من أن أجرّب الموت.. لا راحة لي إلاّ بعد حقنة الهالدول، ترتخي كلّ حاسّة متحفّزة في الجسم، فأنام نصف نومة. تبخلون عليّ ، فلا تضاعفون الحُقنة مرّة واحدة. لماذا ؟ لأنّي مللت حقّا نصف نَومة ونصف حياة ونصف موت. دعنا من الأماني..

جئت من العاصمة . ما أحوالها ؟ المطر غزير.. هذا جيّد. أحسن ما في مطر العاصمة أنّ البالوعات تنسدّ بسرعة وتخنق جميع المخبرين في التّجاويف، ستقذف الحلاقيم الصّدئة روثهم مع الجرائد البائرة وعُلب الجُعّة وبقايا السّجائر، أنت لا تعرفين أنّ كل الفيضانات في باب سعدون والبرك الرّاكدة في باب بحر و"الباساج" وساحة برشلونة سببها تقاريرهم التّي تحشر في قنوات الصّرف. تنتفخ بالماء كالجيف، فتكون تلك البرك

والرّوائح الكريهة في الأزقّة والشّوارع. لا مفرّ لهم من الغرق غير مراكز الأمن وسراديب الدّاخلية، أقسام الشرطة منفذهم الوحيد.. إني أتخيّل رؤساء المراكز الآن حانقين من تلك الأمطار الغزيرة، ويسبّون الرياح التي أرسلت السّحاب . كلّ التّقارير عديمة الجدوى، أفسد السّيلُ حبرها السّري وطيّن أوراقها.

عندما تمطر بقعة من هذه البلاد ينجو من التّتبع آلاف من البشر، يعود السّلام إلى البيوت والسّكينة إلى النّساء. يحضن الآباء أبناءهم، فينعم الأطفال بالدّفء ليالي معدودة. وعندما تمطر في هذه البلاد يستريح الجلادون أيّاما من صراخ المسالخ وقذارة الدّماء. الأيام الممطرة في تونس هدنة قصيرة الأجل. ماذا ؟ تصوّري مبالغ فيه. أتفهّم موقفك. أنت لا تحلّين هنا إلاّ كطير مهاجر. يزور بحيراتنا وسباخنا في الرّبيع، حين تعتدل الحرارة. لا يشاهد من أرضنا غير الخضرة والزّهور البريّة. بل لعلّ لجدّتك ووالدك من الثّراء، فلا تقطنين غير الضّواحي ذات الرّفاه. إذا تنقّلت في شوارعنا نظرت إلى النّاس من خلف الزّجاج. زجاج السّيارات مطلي، يا طبيبة . يصفّي المشاهد، ولا تنفذ من خلاله الرّوائح والأصوات.

أنت ما دخلت مراكز الشّرطة عندنا، وما زرت يوما غياهب الدّاخليّة، وما رأيت أشباه قُرَاد الخيَل. ولو حدث ذلك فملامحك الشّقراء وجوازك الإيطالي يحميانك من أضافرهم. أمّا أنا فأعرفهم ويعرفونني. صوري طالما علّقها أشباه قراد الخيل في مداخل مخافرهم. ملامح وجهي على حيطانهم مائدة. دبيب أرجلهم حول عينيّ كالرَّمَد، بعضهم اتخذ شكل البعوض

والجرذان الرّمادية والصّراصير، وبعضهم أقرب في شكله إلى القمل السّمين.. الشّكر للمطر، سيخنق كثيرا منهم في المجاري..

عندنا في الجنوب في تلك الجبال الغربيّة البعيدة من هنا، السّماء شحيحة جدّا. لا تمطر إلا قليلا، لذلك يكون مخبرو السّلطة أقرب إلى الزواحف والحيوانات اللاّفقارية كالعناكب والعقارب.. عمدتنا مثلا كالعُقْرُبان، لا تعرفين العقربان، الذكر من العقارب، لا حياة مع لدغته...

والناس يا آنسة ما أحوالهم ؟ عهدي بهم بعيد، مازالوا يسارعون على الأقدام وعلى السّيارات وعلى الحفلات الصّفراء؟ وقتهم مشنقة، من يرى سكّان العاصمة في حزمهم كالنّمل يظنّهم جمعوا خير الدّنيا كلّها، وأقصى ما يطمحون إليه رغيف وكراء وكساء، "ربّ عيش أخفّ منه".. والحافلات الصّفراء، أما زالت مكتظّة تملؤها النسوة الذابلات، شربت الأدخنة والمعامل نخب أنوثتهنّ ؟ والمقاهي المكتظّة بالعباد وجمر النّارجيل و اللّغة الفاسدة ؟ لا شيء إلاّ انتظار نتائج الأحد الرّياضي. ومحلاّت الأكل الخفيفة، بدخان زيوتها المحروقة بصحنها التونسي الهزيل. أجل، وصحاف هريستنا كالغراء.

هل تجوّلت بالعاصمة ليلا ؟ هل شاهدت القِطَط السّائبة. ومُومِسات الحدائق المظلمة. لا شيء إلاّ مُواء الجِنس تُذكّيه لافتات الأفلام الإباحيّة. الأسلحة والجنس الشّعار الرّسمي لسنيما القرن العشرين. "الكابتول" و "الكوليزي" مازالتا تبيعان الأفلام الفرنسية المستعملة. لا فرح في الوجوه إلاّ خلف نوافذ الخمّارات أو في دهاليز العلب اللّيلية، لا

ضحك إلاّ من وراء السّتائر الحمراء الطّويلة المُسدَلة. أناس طلّقوا الدّنيا للكادحين النّائمين بلا حلم..

وأنا عندما عرض عليّ الدّقي مذهبه في الحياة سخرت منه. كان يجيء الحيّ الجامعيّ آخر اللّيل مترنّحا من الشّراب. يعترضه " التّباسي" البوّاب غاضبا. فيهدّئ غضبه بسيجارة فاخرة. ويمضي في سبيله يغنّي "رجّعوني عنيك". يدقّ عليّ الباب بكلّ جسمه النّحيل، فأفتح له، فيسألني ولسانه من الخمر كصوفة :أ ما زلت تدرس يا معتوه؟ ما أصعب مراسكم وأشدّ عطشكم جِمَال الجنوب، لن أكفّ عن الغناء حتّى تقول لي من الشّعر سَجدَة، فأنشده:

"الهُدْهُدُ المخْصِيُّ كاتِبُهُ وحاجِبهُ ذُبابهْ

زمنٌ تكون به وحيداً كالفراشة في سحابهْ

ياَ من يعلّمني القراءة والكّتابهْ

ياَ من يُسمِّنُني بأشرعتي وأجنحتي لسكينِ الرّقابهْ

تحيا الكّابهْ تحيا الرّقابهْ

يحيا على فميَ الحجرْ"...

فيخرّ على ركبتيه ساجدا، ويطفق يحلّل صور القصيدة، ويوقظ جعْفرًا وكلّ من يجاورنا من الطّلبة، ويهدّدهم بالضرب إن لم يخنوا، يسألونه: لماذا نسجد ؟ فيقول: هذا المعتوه آخر سلالة الملِك الضّليل ، سمّاها جدّه

وقفة طلليّة، وسمّيتها أنا في بداية هذا القرن سجدة شِعْريّة. اسجدوا لعنكم الخليل! فيركعون ولا يفهمون من كلامه شيئا..

من الدّقي؟ آخر راوية في كليّة الآداب. كان متعصّبا لطبقات ابن سلاّم حتّى قابل في سهرة الفلسطيني درويش. فكفر بعمود الشّعر. تلك تفاصيل لا تهمّ..

قابلته بعد ثلاث سنوات من تخرّجنا، جمعتنا موضة "الكاباس" في حانة بالعاصمة، فوجدته مهدّما كقبر غريب، لم يكن ثرثارا كعادته، ولا تحدّث في الشّعر والشّعراء. ظلّ يحتسي حتّى امتلأ. عندئذ سألته عن الدنيا، ذكر أنّه يشتغل حارسا بمركز لبيع الحواسيب حيث لا شِعْر ولا خيال. و أنّه يفكّر في حيلة للهجرة إلى أوروبا، فقلت له : ويطيق جسمك النّحيل برد القارّة العجوز؟ قال: ولا طاقة لي بسفّ التّراب في "شُرْبَان". كان من بوادي المهديّة. لما ودّعني تعانقنا طويلا، وأحسسته يبكي على كتفي. ثم قال: أما زال في قطعان الجنوب فحول؟ فقلت له: ولا لواقح، كلّها تجمجم. فسار وهو يقول: ألا ريحا صرْصرا تأتي من تلك الرّمال؟..

وجدت في لقائه كالعزاء المفقود. وأيقنت أنّنا جيل شاخ قبل الثّلاثين، وأنّ مدارج جامعتنا لا تبلغ مريديها لغير العالم السّفلي، حيث البرد والنّسيان معًا.

كلامي غامض ؟ لم تفهمي شيئا.. لو كنت مسؤولة عن تلك الضربة التّي رجّت أسناني وجمجمتي كلّها ، لو كنت مسؤولة عن عزيف الكهرباء في رأسي... منذ تلك الصّعقة التي تلقيّتها في أمّ رأسي حتى تقيّأت على

طاولة التّحقيق... قلت للطبيب بعد ذلك: إنّ جمجمتي فارغة إلا من رائحة كشِواء الخنافس، وتلك المادة الهلاميّة المسمّاة مخّا استحالت زبدة فاسدة. توسّلت إليه أن يخلّصني منها بجراحة. فينتزع تلك الطفرة الطّحلبيّة، لكنّه امتنع..

على كلّ - يا آنسة - ذلك الهلام الفاسد في جمجمتي لم يكن شرّا كلّه، فقد مكّنني من التّواصل مع الكواكب والتّوابع بوضوح، ومعرفة السّر الذي من أجله انتحر "هيمنقواي"، ولماذا أدمن "دوستوفسكي" المقامرة.

البارحة زارني حمّاد الراوية، وأخبرني عن بعض ثقاته أن مستشفى الرّازي هذه ستصبح الفردوس الموعود لأثرياء تونس، ولن يدخلها أحد بغير وساطة، أخبرني أيضا أن حاكمة قرطاج ليست بذلك السّوء الذي يروّجه النّاس. ولكن تأوّلوا عليها لثرثرة الحلاّقين بالبلاد، ولما سألته عن شأني في هذه المستشفى قال: أغلب الظنّ أنّك ستطرد منها لأنّك تفشى الأسرار إلى طبيبة من العجم.

أجل سأُطرد لأنّي لا أقوى على التّكتّم إذا ابتسمت، أتداعى في الكلام لصوتك كما يتداعى جدار قديم ملّ الوقوف. فيك ما فيها من الصّمت العميق الهادئ، وفيك ما فيها من النّظر الدّافئ الحاني، شيء موقّع لا يوجد إلاّ في بعض تماثيل الإغريق أو "أزهار الألم" لبودلير.. من هي؟ صوت فيروزي أخير " دَخْلك يا طير الوروار" وينتهي عذابي، جلسات وعسى تكفي..

عرّفتني عليها دليلة قرب مشكاة الأنوار، وسط كليّة الآداب. قالت لي: هذه رفيقتي في مبيت الطّالبات. كانت لا تتكلّم كثيرا، ولكن تحسن فنّ الاستماع، مثلك تماما. وإذا نظرت أو أعرضت "قطعت جميع شراييني". كانت من الشّواطئ الشّرقية للبلاد، وكنت من الصّحارى الغربيّة للبلاد. في همساتها عندلة وورود، وفي صوتي رغاء الصّاديات وملوحة السّباخ. حنين الإبل لن يعيد قصر الحمراء ثانية. قلت لها بعدما تحاببنا: أنا وأنت مستحيل جمعُنا. فردّت واثقة: ذلك لأنّك ما زلت تملك بقيّة عقل. فضاعت الجهات وحسرت نفسي.. لم أعد أُومِن منذ ذلك الحين أنّ شَعْري نبات السّعدان، وأنّ أصابعي حلفاء مسفوعة بالقحط، ولا ملامحي أخاديد الرياح في حجارة الوديان. أجل، يا طبيبة لأوّل مرّة في حياتي صرت إنسانا كاملا..

قصّتي في الحبّ أطلال "لم يعف رسمها"..

أظنّك تأخّرت كثيرا. وزبانية "الريسبردال" وحاقِنُو إبر "الهالدول" على موعد مع دمي. شهرزاد لم تكن غانية تحتال بالقصص، وشهريار لم يكن يعاني عقدة الخيانة، لأنّه كان من أنصار المذهب الطّبيعي. كان مثلي تماما يستوحش اللّيل الأبكم، وتخيّل إليه الظُّلْمَة الهلاوس. أظنّه عانى تمِيلات الوجه والعينين والصّداع الشّديد. ..ها ..ريحهم تتسرّب إلى أنفي فتخنقني. الهلاوس بدأت كحمّى الطّاعون في ذهني، والكلمات كضباب..

"هابيل هنا قابيل هناك، لم يدفن

و الموتى شَرَكـ.. والأحياء سديم"

أفكاري في هذه الآونة غبار عاصفة الصّحراء.. ما أصبرك على بربرة المجانين ! تصبحين على خير يا طبيبة.